# اللغة العربية والهوية

للدكتور خليفة أحمد العتيري

---

العروبة ليست انتماء عرقي فقط ، إنما هي انتماء لغوي وثقافي وحضاري وتاريخي ، لقد أكد الرسول الكريم صل الله عليه وسلم هذه الحقيقة بقوله :

(ليست العربية بأحدكم من أب وأم ، وإنما هي اللسان فمن تكلم العربية فهو عربي ) (1)

وصدق شوقي :

إن الذي ملأ اللغات محاسنا

جعل الجمال وسره في الضاد (2)

اللغة فكر ناطق ،والتفكير لغة صامتة ،و هي معجزة الفكر الكبرى ، فللغة قيمة عظيمة في حياة الأمم ،لأنها هي الوسيلة التي تحمل المفاهيم و الأفكار بين شعوب الأمة ،والقوالب اللغوية التي توضع فيها الأفكار والصور الكلامية التي تصاغ فيها المشاعر والعواطف ، حيث لا تنفصل مطلقا عن مضمونها الفكري العاطفي .

إن اللغة هي الترسانة الثقافية الحصينة التي تحمي كيان الأمة.

إن أمة لا تحترم لغتها أمة لا تستحق أن تعيش ، أمة بلا ملامح ، تماهت قيمها ، وانسلخت عن تاريخها وثوابتها الإنسانية ،وتنازلت عن حقها في الحرية والكرامة والاستقلال، إن تحديات العولمة التي تواجهها اللغة العربية اليوم تضع كل عربي أصيل أمام مسؤولياته (3) .

إن الانتصار للغة ليس منفصلا عن قيم أهلها وإرادتهم في الحرية والاستقلال والسيادة والكرامة ،

إن إرادة المستقبل العربي مرتبط باردة التغيير (4)

وإن حاضر اللغة العربية يفرض تقييمه من أجل الانطلاق إلى الأمام (5)

إن أي إنسان لا يمكن أن يبدع لواطنه شيئا ، إلا إذا أحب الوطن حبا صادقا عميقا ،ولا يمكن التعبير عن هذا الحب إلا باللغة التي نبتت على أديم الوطن (6)

ومن هنا لا يمكن أن نكشف وعينا القومي ،وفعلنا الحضاري لحركة الإنسان على الأرض من خلال لغتنا وما لها من دور في إثبات وجودنا القومي (7)

إن الحضارة العربية الإسلامية قامت على ركيزة الأساسية وهي اللغة العربية (8)

لقد شهدت الإنسانية بعظمة اللغة العربية وما امتازت به من تراكيب جعلها من أرقى اللغات

ولعل شهادة علماء الأمم الأخرى في هذه اللغة خير شاهد على هذه العظمة من ذلك ما قاله :

الألماني (فريتاج): اللغة العربية أغنى لغات العالم

الألمانية (سيجريد هوتكة ):كيف يستطيع الإنسان أن يقاوم جمال هذه اللغة ، ومنطقها السليم وسحرها الفريد ، فجيران العرب أنفسهم في البلدان التي فتحوها سقطوا صرعى سحر تلك اللغة.

الألماني (يوهان فك ): لقد برهن جبروت التراث العربي الخالد على أنه أقوى من كل محاولة يقصد بها زحزحة العربية الفصحى من مقامها المسيطر ..

الألماني كارل بروكلمان :بلغت العربية بفضل القران الكريم من الاتساع مدى لا تكاد تعرفه لغة أخرى من لغات الدنيا .

فرنسي غرست ليتان : لغة فاقت أخواتها بكثرة مفرداتها ودقة معانيها وحسن نظام مبانيها .

الفرنسي ليوس ماسيينون: اللغة العربية هي التي أدخلت في الغرب الطريقة المثلى في التعبير العلمي ،و العربية من أقوى اللغات .

الايطالي (كالرل نيلنو : اللغة العربية تفوق سائر اللغات رونقا ويعجز اللسان عن وصف محاسنها .

البلجيكي جورج سارتون : إن اللغة العربية من أسهل لغات العالم وأوضحها .

الاسباني فيلا سبارا : اللغة العربية أغنى لغات العالم بل هي أرقى من لغات أوربا لأنها تتضمن كل أدوات التعبير في أصواتها في حين الفرنسية والانجليزية والايطالية وسواها انحدرت من لغات ميتة ، وأني لأعجب لفئة كثيرة من أبناء الشرق العربي يتظاهرون أفرادها بتفهم الثقافات الغربية ويخدعون أنفسهم ى ليقال عليهم أنهم متمدينون.

اللغة القومية بمنزلة الوعاء الذي تتشكل فيه القومية ، فمن المفكرين من يقول أن الأمة الألمانية اجتمعت على شعرائها مثل ( جوتا ،وشيلر ) قبل أن تجتمع على ( بسمارك ) ومنهم من يرى أن الفرق بين ألمانيا وفرنسا يقوم على أن الألمان يفكرون على نمط هيجل ،وإن الفرنسيين يفكرون على نمط ديكارت ، والفرق بين هاذين النوعين شاسع .

يعد الألمان من أكثر الشعوب اعتزازا بلغتهم ،ولذالك يشعرون بالانزعاج حين يتحدث غليهم شخص بغير الألمانية (9)

إن قلب الأمة ينبض في لغتها ،وإن لغة الآباء و الأجداد بمثابة مستودع لكل ما لأمة من ذخائر الفكر والتقاليد والفلسفة والتاريخ ، فاللغة مكمن القلب والروح للأمة .

إن الحدود التي تستحق أن تسمى حدود طبيعية هي التي ترسمها اللغات باعتبار اللغة وحدها أساس

القومية وهي الجاذبية السحرية التي تجذب قوما من الناس وتجعلهم يشعرون بشعور واحد

لا يمكن اكتشاف عظمة هذه الأمة إلا من خلال اللغة العربية و الإيمان بها ، وفعلها في إثبات وجودنا القومي وفعلها الحضاري فاللغة أصل كل أنواع النشاط الإنساني و لا يمكن أن تتعرف على النشاط الإنساني إلا من خلال اللغة , إن اللغة رابط وثيق بين الأمة العربية الواحدة ، تلك حقيقة ينبغي أن نرسخها في أذهان وعقول النشء ، وغرسها في نفوس الأبناء منذ الطفولة

لقد كان عرب ما قبل الإسلام وما بعده يصفون من يخرج عن لغتهم بأنه أعجم طمطم أي كالبهيمة لا يستطيع الكلام وكذلك الشأن عند اليونان ، وأصحاب اللغة اللاتينية يصفونه بالهمجية والتوحش ، في حين أن الروس يرونه أخرس عاجز عن التكلم

إنه قانون طبيعي أنساني خالد من خرج عليه مسخ هويته القومية وعرض نفسه للاضمحلال والذل والضياع

إن اللغة كما يرى أبن حزم :

يسقط أكثرها ويبطل بسقوط أهلها ،ودخول غيرهم عليهم في مساكنهم أو بنقلهم من ديارهم واختلاطهم بغيرهم ،فإنما يقيد لغة الأمة وعلومها قوة دولتها ونشاط أهلها .

إن غياب اللغة الأم في الدرس والبحث العلمي والتعليم والإعلام والنشر يعني غياب الخصوصيات الحضارية والثقافية لأصحاب هذه اللغة .

إن الواقع المعيش في هذا العصر وما يشتمل عليه من تكريس للقوة والاستكبار يحتم العودة إلى القانون اللغوي الذي أورده أبن خلدون القائل :

(إن غلبة اللغة بغلبة أهليها ، وإن منزلتها من اللغات تعبر عن منزلة دولتها بين الأمم) (10)

وهو أمر دفع عالم النحو الاسباني ( طونيو نبيرنا) لإفصاح عن غايات ثلاث يتبعها في تعظيم اللغة الاسبانية

1-تعظيم الأمة

2-استخدام أفضل لعقول الناس

3-منع اللغة من التحول

إن الفصل بين الأمة ولغتها لا يبقي من الأمة شيئا

أتدري ماذا يحصل للأمة العربية إن تخلت عن عربيتها ؟

أنهم سيفقدون كل شيء حتى أنفسهم ، سيفقدون الإرث والتاريخ والحاضر والمستقبل ،ويتيهون في الأرض بلا هوية ، فلا مكان لأمة بدون لغة ، فاللغة والهوية صنوان يصعب الفصل بينهما .

إن الذي جرى للهنود الحمر خير مثال يستدل به على قيمة اللغة وأهميتها للأمة والحفاظ على معالمها الإنسانية .

لقد تحولت أمة الهنود الحمر بمرور الزمن عندما فرطت في لغتها إلى مجموعات بشرية لا يحق لها استعمال لغتها البدائية إلا داخل أسيجة مسورة تنبعث منها رائحة الموت و الإهانة التاريخية بعد أن حرم عليها مجرد التخاطب باللغة الأم

ومن هنا رفع الزعيم الفيتنامي الراحل( هوشي )في بلاده شعارا يقول :

لا انتصار لنا على العدو إلا بالعودة إلى لغتنا وثقافتنا القومية وإن الفيتناميين لا يحاربون أعدائهم بالبنادق والصواريخ فقط ، لأن هولا الأعداء متفوقون عليهم في هذا المجال ، وإنما يحاربونهم بسلاح أقوى هو الكبرياء القومي ولا نرى هذا الكبرياء القومي إلا في جبين اللغة .

إن المسخ القومي والديني لأية أمة يبدأ حين ينجح الأعداء بمسخ لغتها ومن أمثلة ذلك ما فعله الفرنسيون في أقطار المغرب العربي وخاصة القطر الجزائري غداة الاحتلال

لقد جاء في إحدى التعليمات الصادرة إلى الحاكم الفرنسي في الجزائر ما يلي :

إن الجزائر لن تصبح حقيقة مملكة فرنسية إلا عندما تصبح لغتنا هناك لغة قومية ،و الذي

يترتب علينا إنجازه هو السعي وراء نشر اللغة الفرنسية بين الأهالي على أن تقوم مقام اللغة العربية الدارجة بينهم ، وكاد للفرنسيين ما أرادوا لولا دماء المليون والنصف من الشهداء الأبرار الذين قدمتهم الجزائر ثمنا لانتمائها القومي العربي (11) إن هذا العصر عصر الاعتزاز بالثقافة القومية واللغة القومية والتراث القومي للأمم وإن العرب أولى من غيرهم بكيان لغوي لأنهم بخلاف جميع الأمم يملكون التراث المشترك والآمال المشتركة والدم المشترك والمصير المشترك ، ولأنهم يواجهون تحديا استعماريا واحد في أساليبه وأهدافه ،لذالك فهم أولى الأمم باختيار العربية ، لغة قومية يحرصون عليها حرصا على أوطانهم وعليهم في سبيل ذلك معالجة بعض القضايا التي لها تأثير سلبي على لغتهم منها :

- الوقوف بحزم ضد الازدواجية اللغوية بين لغتهم القومية وبعض اللغات الوافدة من لهجات ورطانات تنفذ سمومها في دماء اللغة الأم.، إن التعليم باللغات الأجنبية يضعف اللغة الأم في تنمية المدارك وتطوير العلوم ويقللن الطلب على المراجع باللغة الأم ويعطل أنتاجها (12)

- العمل على تحقيق الوحدة العربية بين أقطار الأمة العربية الممزقة
- العمل على تحقيق الوحدة الفكرية الثقافية و التي لا يمكن أن تتحقق إلا من خلال اللغة العربية
- نشر اللغة العربية خارج الوطن والتعريف بها لغير الناطقين بها .
- الوقوف ضد الهجمة الشرسة التي تستهدف اللغة العربية
- اعتماد اللغة العربية لغة تدريس في جميع العلوم والمعرف
- إن الدعوة إلى أحلال اللغة الأجنبية في الدراسات الأكاديمية بحجة الحرص على العلم في جميع المراحل التعليمية أمر له خطورته فلابد من الاحتراس في تعليم اللغة الأجنبية واختيار المراحل المناسبة لتعلمها .
- لابد من ربط التعريب بالضرورة القومية للأمة ، فلا يجوز التداول بالتعريب أو الدعوة إليه إلا بوصفه مشروعا حضاريا تنمويا كبيرا يمنحنا حق الدخول إلى عالم التحول العلمي والمعرفي .
- إن التعريب هوية وعبور إلى المعرفة وإنتاج العلم وذلك لا يتم إلا بتجسيد أنموذجا تتبناه الجامعات العربية ومراكز

البحوث ، على أن يسبق ذالك تنشيط لحركة الترجمة وإيجاد الكتاب الجامعي المتخصص باللغة العربية .

- لابد من جعل اللغة العربية لغة المؤتمرات العلمية بدلا من أية لغة أخرى
- إن كثيرا من الخالدين قدمهم للناس لسانهم الذي خلدهم ، وقد أثبتت الدراسات العلمية أن الأفراد المتفوقون علميا ، هم الأفراد المتفوقون لغويا
- لابد من وضع خطة قومية للترجمة تبين واقعها وترسم ملامحها ومستقبلها وتوحد مصطلحاتها العلمية في العالم العربي .

هوامش

البحث

1- ينظر صحيح البخاري : ذكر نشأة إسماعيل في جرهم 35

2- ديوان أحمد شوقي ، تحقيق عمر فاروق ، دار الأرقم للطباعة بيروت ، (د ت) ، ج2 ، ص 163.

3- ينظر ، اللغة العربية أسئلة التطور الذاتي ، أحمد بن نعمان وآخرون ، سلسلة المستقبل العربي 46، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، 2005 ، ص7 .

4- ينظر ، المشروع النهضوي العربي ، محمد عابد الجابري ، مركز دراسات الوحدة العربية بيروت ، 2005،ص 167.

5- ينظر ، اللغة العربية وبناء المستقبل العربي ، محمد غنايم ( بحث ) المستقبل العربي 347، بيروت 2008م ، ص 46.

6- ينظر ،اللغة العربية وتحديات العولمة ، هادي نهر ، عالم الكتاب الحديث ، الأردن ، 2010 ، ص 2.

7- ينظر ، المصدر نفسه ، ص270 .

8- ينظر ، وحدة العقل العربي ، جورج طرابيشي ، دار الساقي ، بيروت ، 2002، ص 77.

9- ينظر ، التربية في ألمانيا نزوع نحو التفوق والامتياز ، هنزج ليجر ، تعليق محمد عبد العلي موسى ، القاهرة ، ص.134

10 – ينظر ، مقدمة أبن خلدون ، الفصل 23، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع بيروت ، 2003، ص .149

11- ينظر اللغة وتحديات العولمة ، مصدر سايق ، ص 210

12- ينظر ، تجربة جامعة العرب الطبية في تقريب العلوم الطبية ، عبد الهادي موسى ، وآخرون ، مجلة اللسان العربي ، الرباط ، العدد 43.